



الأمل هو حادي العمل، ولا ينشط المرء للعمل إلا ولديه طموحات وأهداف يسعى إلى تحقيقها، وهذا بعض ما يميز الإنسان عن سائر الحيوان الذي يسير بالغريرة فحسب. وعندما يفقد الإنسان الأمل بالكلية يكون أمام نكسة نفسية يصعب أن يتعافي منها.

أعلى النفس بالأمال أقربها *** ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ولهذا كان أخطر ما تواجهه الأمة هو اليأس الذي يقودها عن العمل والإنتاج، وينحرف بمسيرتها عن الصراط اللات

المستقيم إلى منعرجات السبيل والأهواء.

هذا شاب وضع أمله كله في شخص شيخه، عالماً كان أو داعيةً أو مربياً ورأى فيه رمزية غير عادية، تحكي صور ابن حنبل أو ابن تيمية أو ابن عبد السلام أو المنذر بن سعيد.. أو هذا العالم الفحل، أو ذلك المناضل الفريد، وصار هذا الملم يُسقى يوماً فيوماً فيروى ويكبر...

ولكن مضت الأيام وكبر الشاب، وصار له رأيه ونظره وتفرده، وتساوقت الأحداث، وتفاوتت العقول، وتضاربت الاجتهادات، فلم يعد يجد الكلمة الأخيرة التي يصدر عنها دون تردد كما كان من قبل.

وربما وجد من متبوعه شيئاً من الضعف أو التباطؤ في المواقف العملية، سمه حكمةً أو خبرةً، أو جيناً أو ما شئت... المهم خاب الأمل!

وآخر ترعرع في ظل مجموعة من المجموعات الدعوية يرى من خلالها الحياة بأحداثها ومساراتها وتطوراتها، وهي في قراره العاطفة أمل الأمة والإسلام، وهو يحسب خطواتها، ويعد لياليها ويقيس نجاحاتها، ويمتزج بها لحماً ودمًا وعقلًا وقلباً حتى لا يتخيّل نفسه خارج إطارها إلا تفل واستعاد، وتغدو هي الصورة العملية للتطبيق الإسلامي وهي الكمال الذي لا يرى كمالاً خارجه إلا وَدَّ أنه رُدَّ إليه، ولا يرى نقصاً فيه - وهيئات - إلا تأوله أو نفاه أو تعاظمه.

ولكن هذه الصورة الجميلة تهتز أمام المتغيرات والأحداث، ويكترون الناس ويتردون باجتهداتهم، ويضيق عنهم الإطار

الجماعي المرسم، فتتفرق بهم طرق الدعوة والخير، ويمضي كلُّ إلى حال سبيله... وهكذا يعجز العقل عن التفسير والتحليل، فهو التراجع؟ أم التنازع؟ أم... أم...؟ وثالث رأى في مشروع ما، علمي أو عملي أو سياسي أو قتالي، أنه الحل الوحيد، ولا حل إلا به، ولا مخرج للأزمة إلا عن طريقه، ولا نجاة ولا عصمة ولا صدقية إلا لمن استمسك به... وفي هذه الأمثل، وغيرها كثير، مواضع للعبرة.

أولها أنه لا يحسن الإسراف في تقدير شيء ما فوق قدره ؛ لأنَّه ما رفع أحدٌ أحداً فوق قدره إلا وأنزل دون قدره بعد ذلك، والحسنة وسط بين سيئتين.

لأنَّه لا يأس أن أطلع لهذا العالم أو الداعية أو المصلح، ولا يأس أن تتحرك آمالِي الغافية، لكن لم لا أضع مجالاً أو هاماً على الأقل للمتغيرات والاحتمالات، حتى لا أصاب بصدمة لو حدث خلاف الظن؟

إنه ليست من المحتمن أن يكون الأمر كما تصورته، وليس ما تصورته هو بالضرورة ما يجب أن يكون، والخيارات تظل مفتوحة، ومن الفاضل جداً أن يعتدل الإنسان في قناعته في مشروع ما، أو شخصٍ ما، بحيث لا يفرط في الإلحاد على أهليته لهذه المرتبة، أو هذا المقام، فالغلو والجفاء كلاهما ليس من سبيل المؤمنين ولا من هدي المرسلين.

إننا نخطئ خطأً جسيماً حينما نتکئ تماماً على فردٍ أو جماعة أو مشروع باعتباره المخرج الوحيد، والمخلص، والمنقذ، والرمز، والأمل، والحل، ونمنحه من عاطفتنا وحماسنا ما لا يطيق ولا يحتمل، ثم نطالبه بالمستحيل.

وهذا يقودنا إلى الموضع الثاني من مواضع العبرة، وهو أننا بتناقضاتنا الفردية والجماعية والأمية نلقي ببعضنا على هذا الأمل الذي صنعناه ورسمناه، فهذا يريد شيئاً، وذاك يريد نقيضه، وكل يغنى على ليلاه.

فإما أن نجعل هذا المشروع مجمعاً للمتناقضات، وهذا مصير بائس، ونهاية أليمة، وإما أن تبدأ الآمال المغفرة في التفاؤل في الانهيار والتلاشي.

إن تراكمات التراجع التاريخي، وسلبيات الواقع بكل تجلياته ستكون على كاهل هذا المشروع البكر الوليد الناشئ، وتجاوز الواقع والقفز عليه شيء غير ممكن.

إن كل مأساة تقع، أو مصيبة تنزل، أو عدوان يحتمل، أو ضُرٌّ في بحر أو بِرٍ... حتى مما له جذور قديمة، وأسباب راسخة، هو مما يجب أن يكون هدفاً للتغيير، ويجب أن تغيره هذه الجماعة، أو هذا الفرد، أو هذه الدائرة، أو هذا العمل الدعوي أو الجهادي، هكذا نتصور أحياً.

ونتصور مع هذا أن هذا تغيير المنشود المفروض يجب أن يقع تحت سمعنا وبصرنا وإدراكنا، فلا مجال لخطة طويلة المدى، بعيدة الأجل تعدنا بإصلاح منتظر يشهده أولادنا أو أحفادنا... نريد أن نرى النتائج في عمرنا وخلال حياتنا، وإلا فمعناه أن العمل فاسد، والأمل خائب، والثقة في غير محلها، وكل تعامل مع قضية مستجدة يجب أن يكون وفق مرجياتنا وططلعاتنا، وأن يدغدغ عواطفنا، ويتعامل على أساس القوة والقدرة والمنطق النضالي.

وكان الأمة المسلمة مستثنة من النوميس الإلهية التي تجعلها عرضة للصعود والانحدار، والقوة والضعف، والغنى والفقير، والتمكين والاستضعفاف.

وإذا كان من يشعر بالمسؤولية يحسب خطوه وكلمته أكثر فأكثر، ويدرس الخيارات بعناية وترقب، ويقيس الأرباح والخسائر، فإن من خسر كل شيء وأنقضى إلى شفير اليأس قد يمضي دون حساب. كلا.

إن المهم هو أن يكون ثمة خطوة صحيحة وصادقة ومدروسة بعناية بعيداً عن الارتجال، وأوهام القفز والتجاوز التي تخطاب العواطف وتعاند العقول.

ونحن مؤمنون بالأسباب حتى في دقيق الأمور فضلاً عن عظيمها.

ولقد أخطأت يوماً فوضعت مفتاح الباب لباب آخر فوجده يتعصى علي... فقلت لنفسي: سبحان الله، كيف لا اعتبر من هذا المثال الصغير لما فوقي؟

إن غيرة المؤمن وتطلعه للنصر يجعله أحياناً ينتظر من دولة وليدة واحدة تحقيق حلم ضخم ينتمي إلى عهود الخلافة التي تجتمع عليها كلمة الأمة فيحملها بذلك تبعه تنوء بها، وربما كانت وعداً صادقاً بناءً لو ظلت في حدودها وناسبت بين الواجب والممكן، ونأت عن انتظار الخوارق إلى فعل الأسباب.

وثلاث هذه المواقع أن التنوع في المسالك والأسباب، وإحكام التوازن بينها يحفظ للأمة آمالها، و يجعلها بمنحة من نوبات القنوط وعصفات اليأس المستحكم.

فطرق الخير كثيرة، وليس النجاح محصوراً في عمل بعينه، ولا يتوفّر وعد إلهي بتخصيص شيءٍ عن شيءٍ إلا مجمل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكل عامل على وفق السنة النبوية فهو راشد بإذن الله، فإذا صحت نيته فعمله صالح، داعيةً كان، أو معلماً، أو منفقاً، أو مصلحاً، أو مهاهياً، أو مديراً، أو خطيباً، أو ما شاء الله.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجاً وقدوةً لكل فرد من هؤلاء، وجاء هديه شاملًا لأبواب الإيمان كلها، حتى قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الشیخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: «الإيمان بضمّه وسَبْعُونَ شُعْبَةً»، وفي لفظ «بضمّه وسَبْعُونَ شُعْبَةً..» الحديث.

الخير ضروب وألوان وأشكال وأمثال، ولا يحسن تضييق ما وسع الله، ولا تحجيره، ولا يسع الناس إلا شريعة ربهم، أما اجتهادات البشر ففضل مسكنةً بأثر الماء والتربة، وإن تألفت وتنمقت.

ولذا فالآمة بحاجة ملحة إلى نظام يتسع للجهود المتنوعة، والطاقات المختلفة، والمشاريع المتعددة، وهي بمجملها تشكل أمل المسلمين وطموحهم، وإذا تراجع شيء منها عضده الآخر، وقد يفلح قومٌ في عمل فوق الظن، ويضعف آخرون، والنظر خطئٌ ويصيّب.

والآمة ليس محصورة في فئة من الدعاة أو العلماء، بل كل من صح له وصف الإسلام فهو من الأمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر؛ كما عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد يكون من أهل النكارة في العدو ببأسه وشجاعته، أو هو من أهل العائد والفائدة لل المسلمين بعلمه أو حرفته أو رأيه أو لسانه أو يده من ليس معدوباً من المتقدمين في علم أو عبادة أو سمت، والأدّاء عند الله يقسمها كف شاء!

رابع هذه العبر أن يتهم المرء رأيه، نعم، له أن يقتنع به ولا بد، وأن يعرضه، وليتحمس له في حدود المعقول المألف، دون أن يجعله الحق الذي يرد الناس إليه، فقد تكون أتيت من قبل إصرارك على أنموذج خاص لا ترى الحق إلا من خلاله، ولا تبصر النجاح إلا فيه، وغاب عنك ما هو أنجع منه وأحسن.

ولقد خرج الصحابة - رضوان الله عليهم - إلى الحديبية لا يظلون إلا أنهم فاتحون مكة ومطوفون ببيتها العتيق، وأرادوا الحكيم العليم غير هذا، وأبرمت معاهدة الصلح التي رأوها إعطاءً للدنية في الدين كما قال عمر رضي الله عنه: "فعلم نعطي الدينية في ديننا؟".

لقد عجزت غيرة بعض الصحابة وحماستهم وقناعتهم الراسخة المستقرة بالفتح وال عمرة عن استيعاب موقف الحكم النبوية، وتمثل هذا في شخص عمر على قوته وصحة يقينه، ولهذا يقول أبو وائل شقيق بن سلمة: لما قدم سهل بن حنيف من صفين أتينا نستخبره، فقال: اتهما الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردد على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمره لرددت والله ورسوله أعلم وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنـا إلا أسهلـ بـنا إـلـيـهـ أمرـ نـعـرـفـهـ قـبـلـ هـذـاـ

الأمر ما نسد منها حُصم إلا انفجر علينا حُصم ماندري كيف نأتي له.

وأختتم هذا الحديث العابر بهذه الحادثة العجيبة التي تكشف عن الرؤية المتنزنة في الأحداث والمتغيرات، وكيف استطاع رجل كاين عمر، أن يلقط من موقف أقرب إلى اليأس حبل الأمل، والإشادة ببقاء هذه الأمة وديمومتها وخيريتها، وأنها أكبر من الأفراد والجماعات والدول، وأمنع من الجبال، وأعصى على العوادي، وإن كان يوهن عزمهَا، ويرخي قبضتها داء الخلاف والتطاحن والتشاحن.

روى مسلم في صحيحه أن عبدالله بن الزبير لما قتل في حربه مع الحجاج في مكة، وأمر الحجاج بصلبه على جنح في عقبة المدينة، فجعلت قريش تمر عليه والناس، حتى مر عليه عبد الله بن عمر فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد

كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صواماً قواماً وصولاً للرحم، أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير.

ثم نفذ عبد الله بن عمر فبلغ الحجاج موقف عبد الله و قوله، فأرسل إليه فأنزل من جذعه، فالقى في قبور اليهود ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأبأته أن تأتيه... الخبر.

إنها مواطن عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الإسلام اليوم

المصادر: